بِسْمِ اللهِ

بَيَانُ مَا بَدَا لِي مِنْ حَالَةِ « ابْنِ بَالِي »

البحر: الوافر التام | عدد الأبيات: 87

قال الفقير لعفو ربه الغنيّ/ أبو قُدامةَ المِصريّ «عفا الله عنه» :

«وَحِيدٌ» فِي الْبَلَادَةِ وَهْوَ «بَالِي» فَرِيدٌ فِي السَّمَاجَةِ والْجِدَالِ

خَبِيرٌ فِي التَّلَوُّنِ كَالسَّحَالِي ضَلِيعٌ فِي الضَّلَالِ وَالانْحِلَالِ

عَرَفْتُكَ مُنْذُ أَيَّامِي الْخَوَالِي تَبِيعًا خَلْفَ حُطَّابِ اللَّيَالِي

تُحَدِّثُ كُلَّ عِفْرِيتٍ مُغَالِ وَقَدْ أَسْرَفْتَ فِي هَٰذَا الْمَجَالِ

إِلَىٰ أَنْ صِرْتَ مُنْفَلِتَ الْعِقَالِ تُهَيِّجُ بَلْ تَثُورُ مَعَ الْعِيَالِ

وَتَنْهِقُ فِي الشَّوَارِعِ كَالْبِغَالِ وَتَحْسَبُ أَنَّ ذَاكَ مِنَ النِّضَالِ

وَتَنْفُخُكَ الْبِطَانَةُ كَالشِّوَالِ تَكَادُ تَطِيرُ مِنْ فَرْطِ التَّعَالِي

وَكَانَ نِتَاجُ ذٰلِكَ الاخْتِلَالِ: دِمُقْرَاطِيَّةَ الشَّيْخِ «ابْنِ بَالِي»

أَتَعْقِلُ مَا ادَّعَيْتَ مِنَ الْخَبَالِ وَتَفْهَمُ مَا تُؤَصِّلُ مِنْ ضَلَالِ ؟!

لَقَدْ أَيَّدتَّ خُطَّةَ الانْفِصَالِ وَتَقْسِيمِ الْبِلَادِ بِلَا احْتِلَالِ

وَعَجَّلْتَ الْخَرَابَ وَلَمْ تُبَالِ وَلَمْ تَعْبَأْ بِأَيِّ دَمٍ مُسَالِ

وَفِي نَفْسِ الْخِطَابِ عَلَى التَّوَالِي حَكَمْتَ بِكُفْرِ حِزْبٍ لَمْ يُوَالِ

وَهَدَّدتَّ الْمُخَالِفَ بِالْوَبَالِ وَقُلْتَ: «النَّصْرُ آتٍ لِلرِّجَالِ

وَمَوْعِدُ سَاعَةِ الصِّفْرِ انْجَلَىٰ لِي» فَإِذْ بِالصِّفْرِ جَاءَ عَلَى الشِّمَالِ

خَسِرْتَ وَخَابَ سَيْرُكَ فِي اللَّيَالِي ... لَقَدْ جَاوَزْتَ حَدَّكَ فِي الْخَبَالِ

وَلَمْ تَكُ -سَابِقًا- فِي خَيْرِ حَالِ ... وَإِنْ أَتْقَنْتَ مِهْنَةَ الانْتِحَالِ

فَلَيْسَ السَّمْتُ غَايَةَ الامْتِثَالِ ... وَلَٰكِنِ الاسْتِقَامَةُ فِي الْفِعَالِ

وَكَمْ أَبْدَيْتَ مِنْ صُوَرِ الضَّلَالِ! ... كَذَا ، وَعُرِفْتَ فِي لَحْنِ الْمَقَالِ

أَتَجْزِمُ بِالشَّهَادَةِ يَا «ابْنَ بَالِي» ... لِقُدْوَتِكَ «ابْنِ لَادِنٍ» الْمُغَالِي؟!

أَلَمْ تَسْمَعْهُ كَفَّرَ كُلَّ «آلِ ... سُعُودٍ» كَيْفَ تَجْعَلُهُ الْمِثَالِي؟!

بَلِ الْمَقْتُولُ كَفَّرَ مَنْ تُوَالِي ... -بِزَعْمِكَ- مِنْ مَشَايِخِكَ الْعَوَالِي

أَتَمْدَحُهُ وَتَمْدَحُ يَا ضَلَالِي ... جَمَاعَاتِ التَّطَرُّفِ وَالْقِتَالِ؟!

وَتَنْعَتُهُمْ بِطُلَّابِ الْمَعَالِي ... وَأَوْصَافِ الْقَرِيبِ مِنَ الْكَمَالِ

لِتَحْظَىٰ بِالْقَبُولِ عَلَى التَّوَالِي ... لَدَىٰ كُلِّ الطَّوَائِفِ وَالْمَوَالِي

لِذَاكَ تَغُضُّ طَرْفَكَ عَنْ ضَلَالِ ... وَتَخْرِيفِ «ابْنِ قُطْبٍ» فِي الظِّلَالِ

وَتَنْشُرُ عَنْ تَلَامِذَةِ «الْحَوَالِي» ... وَ«سَلْمَانَ» الْمُصِرِّ عَلَى الْخَبَالِ

وَتَحْرِصُ أَنْ تَكُونَ عَلَى اتِّصَالِ ... لِيَرْضَىٰ عَنْكَ إِخْوَانُ الثَّعَالِي

وَإِنْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ فِي الْمَآلِ ... أَتَأْمَنُ مِنْهُ بَطْشًا يَا «ابْنَ بَالِي»؟

أَفِقْ قَبْلَ انْتِقَالِكَ وَانْتِقَالِي ... إِلَىٰ دَارِ الْجَزَاءِ عَلَى الْفِعَالِ

وَأَقْلِعْ عَنْ بِطَانَاتِ الضَّلَالِ ... وَأَصْحَابٍ تَسُوقُ إِلَى الْوَبَالِ

كَفَاكَ تَمَلُّقَاتٍ يَا «ابْنَ بَالِي» وَتَلْمِيعًا لِأَشْبَاهِ الرِّجَالِ
فَأَغْلَبُهُمْ تَبَحَّرَ فِي الْجِدَالِ وَحَرَّضَ تَابِعِيهِ عَلَى الْقِتَالِ
وَمَنْ رَفَضُوا التَّظَاهُرَ ضِدَّ وَالِ يُلَقِّبُهُمْ بِلُعَّاقِ النِّعَالِ!
هُنَا تَسْكُتْ طَوِيلًا لَا تُبَالِي وَتَبْدَأُ فِي التَّظَاهُرِ بِالسُّعَالِ
وَتَأْبَى النَّهْيَ عَنْ سُوءِ الْمَقَالِ إِذِ اسْتَهْوَاكَ طَعْنُهُمُ الْمُغَالِي
فَبِئْسَ الْحَالُ حَالُكَ يَا «ابْنَ بَالِي» تُجَامِلُ مَنْ تُحِبُّ وَمَنْ تُوَالِي
وَتَرْمِي نَاقِدِيهِمْ بِالنِّبَالِ وَإِنْ نَقَدُوا بِحَقٍّ وَاعْتِدَالِ
فَأَقْصِرْ عَنْ هَوَاكَ الْمُسْتَمَالِ وَدَعْكَ مِنَ التَّعَصُّبِ لِلرِّجَالِ
كَفَاكَ تَمَرُّغَاتٍ فِي الْوِحَالِ وَحَيَّ عَلَى الْوُضُوءِ وَالاغْتِسَالِ
فَأَوْلَىٰ بِانْشِغَالِكَ وَانْشِغَالِي تَحَرِّي الْمَنْهَجِ الْحَقِّ الْمِثَالِي
فَأَقْبِلْ مُسْرِعًا مِثْلَ الْغَزَالِ لِتَظْفَرَ بِالْجَوَاهِرِ وَاللَّآلِي
سَبِيلُكَ لِلنَّجَاةِ مِنَ الضَّلَالِ: «أُصُولُ السُّنَّةِ» الدُّرَرُ الْغَوَالِي
عَلَيْهَا أَجْمَعَ السَّلَفُ الْأَوَالِي وَجَافَوْا مَنْ جَفَا إِحْدَى الْخِصَالِ
وَمَنْ قَدْ شَذَّ مِنْهُمْ لَمْ يُغَالِ وَبَادَرَ بِالتَّرَاجُعِ فِي الْمَآلِ
كَمَا رَجَعَ «الْحُسَيْنُ» عَنِ الْقِتَالِ وَلَٰكِنْ بَادَرُوهُ بِالاغْتِيَالِ
كَمَا اغْتَلْتَ الْكَثِيرَ مِنَ الْعِيَالِ بِحَثِّكَ لِلشُّرُوعِ فِي الاقْتِتَالِ

أَمَا تَخْشَى الْمُهَيْمِنَ ذَا الْجَلَالِ ... فَتَنْأَىٰ عَنْ أَسَالِيبِ الضَّلَالِ!

أَتَتْرُكُ مَنْبَعَ الْعَذْبِ الزُّلَالِ ... وَتَسْقِي النَّاسَ مِنْ سُمٍّ عُضَالِ؟!

فَتَذْهَبُ تَسْتَدِلُّ عَلَى التَّوَالِي ... بِبَعْضِ أُصُولِ فِرْقَةِ الاعْتِزَالِ!

لِتَبْرِيرِ الْخُرُوجِ لِمَنْ تُوَالِي ... سَوَاءٌ بِالسِّلَاحِ أَوِ الْمَقَالِ

خَسِئْتَ وَسَاءَ سَعْيُكَ فِي الضَّلَالِ ... فَهَلْ وُكِّلْتَ عَنْهُمْ بِالْجِدَالِ؟

كَفَاكَ تَفَلْسُفًا ! كَمْ يَا «ابْنَ بَالِي» ... مَلَأْتَ بِفَلْسَفَاتِكَ مِنْ شِوَالِ!

سَيَسْأَلُكَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ حَالِ ... غَدًا ، فَأَعِدَّ نَفْسَكَ لِلسُّؤَالِ

أَمَنْهَجُ «فِرْقَةِ التَّبْلِيغِ» خَالِ ... مِنَ الْأَهْوَاءِ أَيْضًا يَا ضَلَالِي؟!

أَتَزْعُمُ فِي الْخُرُوجِ وَالارْتِحَالِ ... خِلَافًا سَائِغًا ؟! يَا لَلْهُزَالِ !

وَتَمْدَحُ مَنْ يَرَىٰ شَدَّ الرِّحَالِ ... لِقَبْرِ وَلِيِّهِ مَحْضَ الْحَلَالِ!

وَتَجْزِمُ أَنَّهُ فِي كُلِّ حَالِ ... مُحِبًّا لِلرَّسُولِ وَذِي الْجَلَالِ!

وَأَمَّا الثَّابِتُونَ مِنَ الرِّجَالِ ... عَلَى النَّهْجِ الْقَوِيمِ بِلَا ابْتِدَالِ

فَتَلْمِزُهُمْ بِأَلْسَنَةٍ طِوَالِ ... تُخَالِفُ مَا ادَّعَيْتَ مِنِ اعْتِدَالِ

وَتَكْشِفُ عَنْ تَنَاقُضِكَ الْعُضَالِ ... وَأَنَّكَ قَدْ أُصِبْتَ بِالاخْتِلَالِ

أَفِقْهُ مُوَازَنَاتِكَ يَا «ابْنَ بَالِي» ... يُفَعَّلُ بِالْجُنَيْهِ أَمِ الرِّيَالِ؟!

أَجِبْنِي .. أَيْنَ مَبْدَأُ الامْتِثَالِ ... لِقَاعِدَةٍ تُعَمَّمُ فِي الرِّجَالِ؟
أَمِ الْأَهْوَاءُ تَسْرَحُ بِالْخَيَالِ ... وَدِينُ اللهِ يُحْكَمُ بِالتَّسَالِي؟!
أَتُفْتِي النَّاسَ؟! كَيْفَ وَأَنْتَ خَالِ ... مِنَ الْأَدَوَاتِ ، وَالتَّأْصِيلُ بَالِ؟!
هِوَايَتُكَ التَّأَرْجُحُ كَالْعِيَالِ ... وَمَا التَّرْجِيحُ مِنْكَ سِوَى احْتِمَالِ
سُئِلْتَ وَلَسْتَ أَهْلًا لِلسُّؤَالِ ... عَنِ «الرَّسْلَانِ» أُسْتَاذِ الْمَجَالِ
فَأَغْثَيْتَ النُّفُوسَ بِالارْتِجَالِ ... وَضَيَّعْتَ الْأُصُولَ بِالابْتِذَالِ
وَقُلْتَ عَنِ «الرَّبِيعِ» وَمَنْ يُوَالِي ... «أَمَانًا»: ذَاكَ «جَامِيٌّ» مُغَالِ
وَقَدْ أَثْنَى الْأَكَابِرُ وَالْعَوَالِي ... عَلَيْهِمْ رَغْمَ أَنْفِكَ يَا ضَلَالِي
وَهُمْ أَدْرَىٰ بِمَنْهَجِ الاعْتِدَالِ ... وَشَهِدُوا بِالْحَقِيقَةِ لَا الْخَيَالِ
وَإِنْ عُدِمَ الثَّنَاءُ فَفِي الْمَآلِ ... يُزَكِّيهِمْ ثَبَاتُهُمُ الْمِثَالِي
وَإِنْ سَقَطُوا -بِزَعْمِكَ- لَا نُبَالِي ... بِشَخْصٍ ، كَمْ ضَرَبْنَا مِنْ مِثَالِ!
فَلَيْسَ الْحَقُّ يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ ... وَلَٰكِنْ يُعْرَفُونَ بِالامْتِثَالِ
فَتَابِعُ مَنْهَجِ السَّلَفِ الْأَوَالِي ... يَقُولُ الْحَقَّ دَوْمًا لَا يُبَالِي
يُمَسِّكُ بِالْأُصُولِ عَلَى التَّوَالِي ... وَيَأْمُرُ بِالْحَمِيدِ مِنَ الْخِصَالِ
وَلَا يَرْضَى الْغُلُوَّ بِأَيِّ حَالِ ... وَلَا خَلْطَ الْمُحَرَّمِ بِالْحَلَالِ

فَهٰذَا مَنْهَجُ السَّلَفِ الْمِثَالِي ... رَقَىٰ بَيْنَ الْمُمَيِّعِ وَالْمُغَالِي

فَأَقْصِرْ عَنْ غُرُورِكَ يَا «ابْنَ بَالِي» ... وَدَعْ ثَوْبَ التَّكَبُّرِ وَالتَّعَالِي

وَكُفَّ عَنِ اجْتِهَادِكَ فِي الْجِدَالِ ... وَتَزْيِيفِ الْحَقَائِقِ بِالْمُحَالِ

وَبَادِرْ بِالدُّعَاءِ وَالابْتِهَالِ ... لِيَهْدِيَكَ السَّمِيعُ مِنَ الضَّلَالِ

فَإِنَّكَ إِنْ أَفَقْتَ مِنَ الْخَبَالِ ... سَتَنْدَمُ دُونَ شَكٍّ فِي الْمَآلِ

وَتَضْرِبُ أُمَّ رَأْسِكَ بِالنِّعَالِ ... وَتَدْفِنُ مَا تَبَقَّىٰ فِي الرِّمَالِ

وَتَبْذُلُ مَا اسْتَطَعْتَ وَكُلَّ غَالِ ... لِتَحْذِفَ مَا جَنَيْتَ مِنَ الْمَقَالِ

قُبَيْلَ نُزُولِ قَبْرِكَ فِي اللَّيَالِي ... وَحِيدًا فِي الظَّلَامِ وَالانْعِزَالِ

وَإِنْ تَأْبَ النَّصِيحَةَ مِنْ خِلَالِي ... فَخُذْهَا مِنْ مَصَادِرِهَا الْعَوَالِي

وَحَسْبُكَ أَنَّ رَبَّكَ فِي الْمَآلِ ... هُوَ اللهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ حَالِ

يَجَازِي الْخَلْقَ مِنْ جِنْسِ الفِعَالِ ... فَأَبْشِرْ بِاخْتِيَارِكَ يَا «ابْنَ بَالِي»

تمت بحمد الله تعالَىٰ

بعد غروب شمس الخميس

19 من جُمَادَى الآخِرَة عامَ 1446 هـ

مُدَوَّنَةُ أبي قُدامة المصري عفا الله عنه
تلاوات ◎ منظومات ◎ قصائد ◎ مقالات ◎
www.abuqudamah.com